اللغة العربية وسكان الأندلس (١)

في القرون الوسطى

La langue arabe et les habitants de l'Andalousie au Moyen âge

ان جزيرة الأندلس في القرون الوسطى وخصوصاً في القرن الخامس تنقسم الى قسمين الأندلس النصرانية والأندلس الاسلامية .

فالأندلس النصرانية عبارة عن قطعة مستطيلة تمتدّ في شمال الجزيرة وتشتمل على بعض مقاطعات كـكاطالونيا ونابرّة أي بلاد البشكونش وجليقية . وأما الأندلس الاسلامية فهي تشتمل على بقية الجزيرة أي على اكثر من أربعة اخماس من الجزيرة . وهي تظهر لنا من جهة السياسة على حالة بلاد الفرس في زمان دولة الأرساسيين بعد انحلال امبراطورية الأكمينيين . ولقد كانت بلاد فارس في تلك الأيام منقسمة الى دويلات متعددة يسميها المؤرخون « طوائف » وقد قال ابو الفداء في « كامله » ان عددها يبلغ تسعين طائفة . ويحكم فيها ملوك لا يرتبطون بالسلطة المركزية إلا بعلائق ضئيلة . فقياساً على ما كان عليه بلاد الفرس سمى المؤرخون « ملوك الطوائف » أولئك الملوك الذين استقلوا استقلالاً في جزيرة الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة في ابتداء القرن الخامس .

فتكوّنت حينئذٍ نحوُ عشرين دويلة يحكم فيها ملوكٌ أصلهم عرب او برابرة او صقالبة . فالمسلمون العرب يحكمون في قرطبة واشبيلية ، وفي لاردة ومرقسطة ؛ والمسلمون البرابرة في غرناطة ومالطة ورُندة وموررو وقرمونة وطليطلة وبطليوس والسهلة ؛ والمسلمون الصقالبة في المرية ودانية وجزيرتي ميورقة ومنورقة .

هذه هي الحالة السياسية في جزيرة الأندلس في القرن الخامس . وان ملوك الطوائف ليست لهم الا قوة نسبية يحاربون بعضهم بعضاً من غير أغراض معينة ، شأن أغلب الملوك الذين يستولون على الحكم ويقتسمونه بينهم حسب الفرص والمصادمات بعد انحطاط السلطة المركزية وانحلال قوتها .

(١) محاضرة ألقاها المستشرق الفرنسي الأستاذ بيريس بالمجمع العلمي العربي في ١٢ مايس سنة ١٩٤٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ليس غرضنا عرض الاسباب التي أفضت بالخلافة الى تلك الحالة ، ولكن يهمنا درس الحركة الثقافية في ذلك الزمان زمان ملوك الطوائف بالأندلس . نعم تزدهر في بلاطات أولئك الملوك مهما كان أصلهم حياة أدبية عقلية عربية محضة .

وأن شهرة الأديب تهمّهم أكثر من سمعة قائد الجيش . فكل ملك من ملوك الطوائف غايته القصوى ان يعتبر بلاطه مجلساً بل مجمعاً يجمع أفحل الشعراء وأبلغ الكتاب ويجدر بنا ان نضيف وأكبر مفكري الجزيرة . وفي الواقع لم يرَ قط في الأندلس الاسلامية أكثرُ أدباء من ملوكَ ووزراء وغيرهم . فلا يحصى عددهم ولا توصف مزاياهم . فناهيك من شاهد « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان و « البديع في وصف الربيع » لأبي الوليد الحميري ولا سيما « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » لابن بسام الشنتريني و « الحلة السيراء » لابن الأبار .

وهناك أمر جديرٌ بالاعتبار وهو ان الشعوب التي تسكن الأندلس مختلفةٌ جداً من مسلمين — وفيهم عرب وبربر وصقالبة — الى نصارى ويهود ولكن الثقافة واحدة وهي عربية محضة . فجميع العناصر مولعة باللغة العربية . فهذا يجب علينا معالجته بالتفصيل فنقول :

ان العرب الغزاة في أول الفتح أصلهم ، في الأغلب ، من مدينة النبي ﷺ . فيهم أنصار ومهاجرون ، انضمّ بعضهم طوعاً في الجيوش الزاحفة الى أفريقية فالاندلس ، وانخرط بعضهم في أثناء الحوادث التي وقعت بالحجاز والشام وخصوصاً بعد معركتين مشهورتين وقعة الحرّة في شمال المدينة ووقعة مرج راهط في الشام . في هذه الوقعة الأخيرة تقاتلت قبيلتان مضادّتان : بنو قيس من معد ، وبنو كلب من اليمن . وتغلبت بنو كلب على بني قيس ومنذ تلك الوقعة أضمرت بنو قيس لبني كلب إحناً حملتهم على فتن مستمرّة . وهاجر عددٌ كثير منهم الى الأندلس على حسب نجاحهم في الشرق أو إخفاقهم فيه .

في أثناء تلك الحوادث دخلت الأندلس فرقة عظيمة من اليمانيين المقيمين بالشام وذلك انّ الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بعثهم الى إفريقية لإطفاء فتنة نشبت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نارها هناك . فوصلوا الى سبتة (Ceuta) وهي فرضة بقرب زقاق جبل طارق . وبعد حوادث لا حاجة لنا الى ذكرها أبحرت الجنود اليمانيون بنداء والي الأندلس عبد الملك ونزلت بالساحل الأندلسي .

وحينئذ طارت من جديد فتنٌ بين المعديين واليمانيين الى ان انتصرت جنود اليمانيين . فاستوطنت النواحي الجنوبية التي استقرّت فيها فيما بعد .

فأقام جند دمشق بالبيرة أي غرناطة وناحيتها ، وجند الاردن برَيُّه أي مالقة ومقاطعتها ، وجند فلسطين بمدينة شدونية والجزيرة الخضراء ، وجند حمص بإشبيلية ولبلة ، وجند قنسرين بجيان .

وأما جند مصر فاستوطن باجه وتدمير اي عمل مرسية . وهنا يحسن بنا استطراد من ذلك الحين شاع على ألسنة الناس إطلاقُ كلمة دمشق على غرناطة وحمص على اشبيلية . وقد قال ابن سعيد المغربيّ في المُغرب : « يقال لنساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة العربيات لمحافظتهن على المعاني العربية » . وقال الشقنديّ في رسالته : « غرناطة دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس ... ولم تخلُ من أشراف اماثل وعلماء اكابر وشعراء أفاضل » .

ولما فرّ عبد الرحمن الأموي الملقب بالداخل من الشرق بعد استيلاء العباسيين على الأمر ووصل الى الأندلس وفاوض المعديين واليمانيين ، أخفق مع الأولين واتفق مع اليمانيين الذين صاروا أنصاره الوفيين وأعانوه على تأسيس أمره بالاندلس .

وفي ايام ملوك الطوائف اضمحلت تماماً الإحن والضغائن بين هؤلاء وأولائك ولكن بقيت مميزاتهم الأخلاقية عند أعقابهم . فان المعديين يمتازون بغيرتهم وحماستهم على الذود عن حوض الدين ولهم نخوةٌ ما مع كرم الشيم وسخائها .

وأما اليمانيون فقد اضاعوا طباعهم الحربية فصاروا ليني الجانب ذوي تسامح وأظهروا عاطفة ما الى العناصر غير العربية .

واما ما يخص بالآداب فان الفرق بينهم غير واضح ، فعقلهم وإحساسهم استويا بتأثير إقليم وبيئة مخالفين لجزيرة العرب ولا سيما بفضل حياة جديدة بين أهال قد أثروا فيهم بمخالطتهم إياهم . إذاً اصل مسلمي الأندلس من اعرق قبائل العرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأشرفها ولكن هناك عرب آخرون اصلهم غير هولائك . فلما استتب الأمر للأمويين ورسخت اقدامهم في ارض الأندلس وازدهرت خلافتهم حتى ذاع صيتها الى الشرق ، قدم الأندلس عددٌ كثيرٌ من الشرقيين . والقت المراكبُ مراسيها بالمرية ودانية وبلنسية وقد اقلعت من مرافئ مصر والشام . فمنهم تجار وصناع ومنهم شعراء وأدباء ومغنون . وقليل جداً من كان يكرُّ راجعاً الى وطنه لما بُذل لهم من حفاوة في الاستقبال ومراتب ومناصب ، وهدايا وعطايا . وذلك كله يحملهم الى استيطان بلاد الأندلس وربما تلحق بهم أسرهم بعد مدَّة .

وعلى هذا الطريق ازداد شيئاً فشيئاً عدد العرب في الأندلس وقويت عوائدهم وأخلاقهم ونزعاتهم بفضل أولئك المهاجرين من الشرق الى الغرب . وقد خصص المقريّ في كتابه القيم المعنون « بنفح الطيب » باباً طويلاً لأهمّ الرّحالين الوافدين على الأندلس وهو الباب السادس ولا شكَّ انه من امتع ابواب الكتاب . من جملة الداخلين ابو عليّ القالي وصاعد اللغويّ .

وهنا يسأل سائل : اين ينزل الشرقيون ؟ فلا ريب ان جنوب الجزيرة التي يطلق عليها كلمة L'Andalousie خاصة هي الكعبة التي تشد اليها الرحال فتجلب جميع الوافدين الى الأندلس لان مدينتيها قرطبة واشبيلية من اكبر وازهر مدن الدنيا وابهى امصارها . وهنا يوجد بنو عباد وبنو جهور من ملوك الطوائف . وبظواهر قرطبة قبيلة عربية اسمها بنو يَلي قد حفظت عوائدها الخاصة كما كانت في جزيرة العرب ولغتها الفصيحة على احسن حال ، هذا ما يفيدنا به ابن حزم الظاهري في كتاب « جمهرة انساب العرب » .

ومن جهة الغرب في مقاطعة شِلب توجد قبائل يمانية وفي المرية بنو تُجيب من كندة . وفي عمل بلنسية أعقاب الأنصار من أوس وخزرج . وفي جريقة حِصن مسمى بحصن الأشراف يُعزى اليهم . وبنو فهر في شاطبة وبلنسية ودانية . وبنو معافر مشهورون ايضاً ببلنسية منهم القاضي ابن الجحاف الذي ورد ذكره مع السيد كمبيادور (Le Cid Campeador) . وبنو واجب لهم عدد لا يُهان ببلنسية وجزيرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شقرودانية واريولة وألش . وبنو قضاعة في أندة . ونذكر أخيراً قبائل العرب في ناحية سرقسطة منها بنو تجيب .

وبديهي ان أولئك العرب أتوا بلغتهم الفصحى وهي لغة الحكومة الرسمية وحدها . وعلى رجال الحكومة ان يتكلموا ويكتبوا بها ، وعلى الوزراء والكتاب ان يمهروا الى الغاية في الكتابة والكلام بها .

لا حاجة لنا الى سرد فحولة الشعراء وبلغاء الكتاب في القرن الخامس . فكتاب الفتح بن خاقان المحلى بعنوان « قلائد العقيان » حافل بأساميهم ونخب آثارهم فللباحث عنهم ان يراجعه .

واما البرابرة فأصلهم من شمال افريقية . وهم كثيرون في الجيوش التي فتحت الأندلس واخترقت جبال البيرينيه Pyrénées وتوغلت في اعماق فرنسا حتى بلغوا مقاطعة لاتورين (La Touraine) من جهة الغرب وطلعوا الى عين نهر لاسون (La Saône) من جهة الشرق ودخلوا جبال لا ساڤوة (Savoie) وبلاد سويسرا (Suisse) وشمال إيطاليا .

وقد ظلت الحرب سجالاً بين المسلمين والنصارى فرجعت الجيوش الى جبال البيرينيه واستقرت بعضها بلاردة وسرقسطة وليون واسطورقة تشن الغارات على النصارى ، واستوطنت بعضها ناحيتي بطليوس وطليطلة وأسست بهما مملكتين نرى لزاماً ان نخصص لهما كلاماً إجمالياً .

فطليطلة عاصمة مملكة يحكم فيها أسرة ذي النون التي كان جدها يسمى طوريل من قبيلة هوّادة القاطنة الى الآن بشمال إفريقية . وافراد تلك الأسرة الملكية يتعاطون العلوم الرياضية فمرصاد طليطلة مشهور في أيامها وفيما بعدها . وروى لنا المؤرخون الثقات ان القادر أخير ملوك طليطلة لما ألزم الى مغادرة عاصمته سوّلت له نفسه ان يحمل معه آلة واحدة يقدرها تقديراً بالغاً وهي أسطرلاب . ومع هذا ذاع صيت ملوك طليطلة بثروتهم وبذخ ملكهم ولا سيما فيما يخص الإغدارات اي الولائم والمأدبات التي تقام بمناسبة الختان . وضرب المثل بالإغدار الذنوني لما فيه من البهاء والأبهة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واما بطليوس فهي عاصمةُ مملكة بني الأفطس الذين اصلهم ايضاً من شمال افريقية ، من قبيلة مكناسة . ولقد تعرّبوا لغةً وأخلاقاً منذ استقرّوا بالأندلس . فلا نرى اقنع دليلٍ من ان نذكر ملكاً من ملوكهم وهو المظفر . وكان مولعاً بالأدب ، فصيح اللسان ، قوي العارضة . وطالع كتباً جمة في اللغة والنحو والشعر والنوادر والأخبار وايام العرب ، وانتخب منها جوهرها ووضع منها كتاباً جامعاً لكل الآداب الجميلة ، سمي باسمه فقالوا له « المظفريّ » وهو في الحقيقة عبارةٌ عن دائرة معارف ، موضوعها الأدب والتاريخ في خمسين جزءاً . وقد ضاع لسوء الحظ ولم يبق منه الا فقرات متفرقة في كتب شتى .

وابنُ المظفر : المتوكل ، كان أديباً متفنناً ، له لباقةٌ في صناعة الشعر والنثر .

هنا يجدر بنا ان نتساءل : ماذا صار لهؤلاء البرابرة في أخير القرن الخامس وفي اثناء القرن السادس اي في عهد المرابطين والموحدين ، بعد فتح النصارى لطليطلة وبطليوس . لا شك ان اكثر السكان المسلمين هاجروا الى الجنوب واستقروا في مقاطعات غرناطة ومالقة وشمال افريقية . واما الباقي منهم وهم الأقل فلم يبرحوا قراهم وضياعهم واعتنقوا النصرانية كرْهاً . ولعل المراقاطوس (Maragatos) الذين يسكنون الى يومنا هذا في الجنوب الغربي من مدينة اسطورقة (Astorga) في بقعة مقفرة لا طائل للاقامة فيها هم نسل المسلمين القاطنين هناك في القرن الخامس . وهؤلاء المراقاطوس قد حفظوا لباسهم الخصوصي الذي لا فرق بينه وبين البرابرة الموجودين الآن في ديار مرّاكش . وزيادة على ذلك فانهم يحلقون رأسهم الا انهم يتركون خصلةً قصيرة من الشعر تتدلى على القفا ، شأن اغلب المراكشيين في يومنا هذا . وهم وان نسوا لغتهم الأصلية فلا يتكلمون بعدُ اللغة الاسبانية المحضة . فالأرجح انهم من اعقاب اجداد مسلمين ينتمي تأريخهم الى القرن الخامس .

فيما عدا مملكتيْ طليطلة وبطليوس فمملكتا السهلة وغرناطة جديرتان بالذكر . فالسهلة واقعة وسط ممالك مرقسطة وطليطلة وبلنسية ودانية . يحكم فيها ملك ضعيف الشأن مع انه ماهر في السياسة ، وربما اقتحم قطره جيرانه المعتدون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليه لسبب ما، وبينهم السيد الكبياهور ولكنه يرى من طالع سعده ان يعيش سالماً مطمئناً في زُمرة فتيان يتذوقون الشعر وما يتعلق به .

واما مملكة الجنوب فتشتمل على ناحيتي غرناطة ومالقة ويحكم فيها أميران : حبوسُ وباديسُ بن حبوسُ . واصلها من شمال افريقية ، لا يهمها الا الحرب . وبديهي ان لا يقدر الشعر حقّ قدره ، وينفر الادباء والشعراء من بلاطها الى ان خلفها الأمير عبد الله وحينئذ صارتْ غرناطة مركز حركة فكرية على رأسها الأمير نفسه .

بقي لنا ان نذكر عنصراً قليل العدد ولكنه عظيم الشأن والنفوذ ، ألا وهو العنصر الصقلبيّ فأول والٍ بل خليفة أمويّ استخدم الصقالبة في الأندلس هو عبد الرحمن الناصر فقاموا في اول الأمر بخدمات منزلية ثم ارتقت حالهم حتى قاموا بوظائف مهمة في القصر الملكي او خارجه ولعبوا دوراً سياسياً في أخير القرن الرابع وابتداء القرن الخامس . وزاد عددهم الخلفاء بعد عبد الرحمن الناصر واستند عليهم المنصورُ بن ابي عامر في سياسته وعهد اليهم بخطط سيفية كانت او قلمية .

وهنا قد يسأل سائل : من اين جاء هؤلاء الصقالبة . فلقد تخالفت الآراء في أصلهم ولا ريب انهم في اول الأمر صقالبة ، بحصر المعنى اي اصلهم من بلاد « السلاف » بشرق أوربا فيما يُعبر عنه الآن بـ « روسيا » على المعنى العام . وكانت الشعوب الجرمانية تُغير على تلك النواحي فتسترقّ الرجال والنساء والبنين ، وتبيعهم الى سكان الأندلس . ثم بعد مدة أُطلق اسم الصقلبي على كل أجنبي أبيض الوجه استخدم في حرم الأُمراء او في الجند . وقد قال ابن حَوْقل الذي سافر الى الأندلس في القرن الرابع : « ان بلد الصقالبة طويل فسيح والخليج الآخذ من البحر المحيط بنواحي ياجوج وماجوج يشقّ بلدهم ويستمرّ مغرباً الى نواحي اطرابزندة ثم الى القسطنطينية ويقطع ناحيتهم بنصفين : فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وافرنجة وانكبردة وقلورية » .

وكان أربابهم اذا لاحظوا فيهم استعداداً خاصاً للأدب والثقافة ، ربوهم تربية توافق مواهبهم وعلموهم العلوم النقلية كأنهم من أولادهم . وآل الأمر الى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان بعض الصقالبة أثروا بوظائفهم العالية واقتنوا بدورهم خدماً كثيراً وابتاعوا كتباً مختلفة الفنون وملأوا بها مكاتب عظيمة . وصاروا هم من جملة الأدباء والمفكرين . وقد كثر عددهم حتى ألف أحد منهم اسمه حبيب في ايام الحكم بن عبد الرحمن الناصر كتاباً يجمع فيه اشعارهم ليبرهن ان الصقالبة لهم استعدادات طبيعية كسائر العرب للنظم والنثر ، وعنوانه : « كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » ، وقد عاث فيه الزمان ولم يُبق له أثراً بعد عيان .

هذا ما يخص بالأدب . واما من حيث السياسة فان الصقالبة قد استقلوا بشرق الأندلس وأسسوا مملكةً في دانية وجزيرتي ميورقة ومنورقة . وحاول بعضهم ان ينشئ دويلة في بلنسية ، غير انه لم يلبث ان تغلب عليه بنو هود من سرقسطة وبنو عامر اولاد المنصور بن ابي عامر .

معلوم ان المسلمين من عرب وبرابرة وصقالبة ، لا يكونون وحدهم سكان الأندلس . فبجانبهم أهل الكتاب من نصارى ويهود . ويحسن بنا ان نعرض لحالتهم الاجتماعية والادبية على وجه إجمالي لنقتنع بأنهم على غير ما نظنه بادئ بدء .

قد أُطلق على النصارى الأندلسيين اسم « مُزاراب » (Mozarabes) وهو مشتق من « استعرب » كأنهم استعربوا بمخالطتهم العرب وسنرى ان ذلك صحيح بدلالة مؤرخيهم أنفسهم . انهم يعيشون كسائر أهل الذمة تحت إدارتهم المدنية الخاصة . فواليهم اسمه القوندي (Condé) بعينه الخليفة . وقد اشتهر القوندي سرفاندو (Servando) بقرطبة والقوندي تودو (Toddo) بقلمرية (Coïmbre) ويحكم القوندي بين النصارى بالمرافعة الثانوية والسنسور (Censor) هو الذي يحكم بالمرافعة الابتدائية . واما الدفنسور (Defensor) اي المحامي فيقيم بقرطبة ويحامي عن أهل دينه قدام الخليفة . واما الجنايات والجنح والمخالفات التي تقع بينهم وبين المسلمين فترفع لدى المحاكم الاسلامية .

وكان المزاراب يجتمعون في حارات وأحياء على حدة ولكنهم يخالطون المسلمين كل يوم ويعاملونهم في الشؤون المعاشية ويلقفون لغتهم كما هو بديهي ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويتعرّبون بل يستعربون بلا ريب ويختارون اللباس العربي ويفضلونه على اللباس النصراني ويتخذون لأنفسهم كنىً وأسامي وألقاباً عربية .

وعندنا وثيقة تقرّر ان النصاري المزاراب قد تعمقوا في التعرّب وذلك منذ القرن الثاني . فان نصرانياً اسمه ألفارو (Alvaro) من قرطبة متوفى في منتصف القرن الثاني للهجرة يصرّح بكل صراحة في كتابه المعنون بـ « الدليل اللامع » (Indiculus luminosus) الذي كتبه باللاطينية ، ما يلي : « ان اخواني في الدين يولعون بمطالعة القصائد والروايات العربية ويدرسون مؤلفات الفقهاء والفلاسفة المسلمين ، لا لشأن الردّ عليهم بل ليضطلعوا بالنطق العربي الفصيح وبالكتابة البليغة . وأين نجد اليوم نصرانياً كفئاً بقراءة النفائس للكتب المقدسة ؟ من فيهم يدرس الأناجيل وكتب الأنبياء والحواريين ؟ يا للأسف ! جميع فتيان النصارى الذين يمتازون بنبوغهم لا يعرفون الا اللغة والآداب العربية ويطالعون ويدرسون برغبة زائدة ، الكتب العربية ويملأون بالنفقات الباهظة مكتبات عظيمة ويعلنون في كل مكان ان هذه الآداب عجيبة كل الإعجاب . غير انهم اذا ذكرت لهم الكتب النصرانية جاوبوك ان تلك الكتب غير جديرة باهتمامهم . ان النصارى أهملوا لغتهم حتى نسوها تماماً . وفي الف منهم تجدُ بالكدّ والمشقة واحداً يعرف ان يحرّر رسالة الى صديق على ما يقتضيه القواعد النحوية . وبالعكس اذا فتشت من يكتب بالعربية وجدتَ عدداً جماً منهم يعبرون بهذه اللغة بأحسن رشاقة ورأيت انهم ينظمون قصائد أفضل ، من حيث الصناعة ، من اشعار العرب أنفسهم » .

لقد صحّ ما قال الكاتب اللاطينيّ الفارو (Alvaro) . فان النصارى بعد طول احتكاكهم بالعرب ولما رأوا في المسلمين من التسامح وعلوّ الهمة قد بلغوا الى درجة انهم يتكلمون بل يفكرون في العربية ويعرضون عن اللاطينية التي صارت غير مألوفة لهم .

ان الفارو المذكور أعلاه قد ألمّ بثلاث لغات : اللاطينية والعربية والعبرية . وقبله اشتهر نصراني آخر اسمه جوان الاشبيلي (Juan Hispalense) وهو سعيد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المطران الذي ورد ذكره في الكتب العربية فألف تفسيرا بالعربية على «التوراة» وترجم الأناجيل من اللاطينية الى العربية .

وهنا يحسن بنا ان نلفت الأنظار الى مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بمدريد ، فيه مجموعة من القوانين والقرارات البابوية ينتمي تاريخه الى القرن الثالث الهجري في ختامه اشعار عربية على حسب القواعد العروضية الصحيحة . وصاحبها خوري اسمه فسنتي (Vicenté) وتضيف الى ذلك ان إهداء الكتاب الى المطران عبد الملك (كذا) محرّر بالنظم الفصيح .

وفي أيام عبد الرحمن الناصر يضع المطران ريسموندو (Recemundo) المسمى ربيع بن زياد عند العرب ، تقويماً بالعربية يترجم فيما بعد ولعلّ المترجم هو جيرار دي كريمون (Gérard de Crémone) المشهور .

وفي القرن الخامس قلّ جداً عدد النصارى المزاراب بالأندلس ولقد أسلم اكثرهم وابدلوا اسامي عربية من اساميهم النصرانية وقلما نجد ألقاباً نصرانية تدلّ على اصلهم . فصيرتهم البوتقة العربية رجالاً عربيين لسانا وعاطفة .

اما اليهود فهم أهل كتاب كالنصارى . تمتعوا من ابتداء الفتح العربي بحرّية وتسامح يخالفان تماماً السياسة القوطية التي شعارها الظلم والاعتداء . وبفضل هذا التسامح وهذه الحرية تحسنت حالة اليهود مادياً ومعنوياً ولا سيما بقرطبة في ايام عبد الرحمن الناصر . فلا يهمنا ما قد حققوا في ميدان التجارة والصناعة بل غرضنا ان نبسط علائق الحركة الفكرية اليهودية بالثقافة العربية . فنقول اختصاراً :

ان يهود الأندلس الى منتصف القرن الرابع ، من حيث ثقافتهم ، تابعون للأكاديمية البابلية الشرقية التي مركزها بسوار (Sora) . ولكنهم في هذا الزمان شاءت المقادير ان تعينهم على تأسيس مدرسة يهودية بقرطبة . وذلك ان عدّة احبار من اليهود ركبوا البحر المتوسط فأسرهم أمير الاسطول الأندلسي بأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر . وأتى بهم الى قرطبة . ففدت الأُمة اليهودية القرطبية اثنين منهم رغبةً منها في إبقائها بالعاصمة الأندلسية . وهكذا وجدتْ مدرسة قرطبة اليهودية حبرين علامتين لإدارتها واستئناف الدروس التلمودية بها . ومن حسن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحظ أُتيح لها أن وجدت محامياً متنوراً مثقفاً في نفس النطامي النجرير حسداي ابن شبروط الذي تخصص بخدمة الخليفتين : عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . وقد استعمل نفوذه وأمواله لتحسين حالة اليهود وإزهار الآداب اليهودية وإعطاء المكاتب الأندلسية جميع الكتب التي نُشرت بالشرق . وحينئذ تكاثر عدد اليهود وعمروا مدينة خاصة وهي لوسينة (Lucena) بمقربة من غرناطة . واحترفوا بالتجارة والأدب والديبلوماسية واتخذوا بقرطبة بعض مشخصات العرب مثل لباسهم ولغتهم وأخلاقهم .

ولكن خلافاً لما ننتظره لم يتسع نطاق اللغة العبرية لأن الثقافة اليهودية في تلك الأيام مدينة للغة العربية من حيث المبنى او بعبارة أوضح : فالمعنى يهوديّ والمبنى عربيّ . وإليكم بعض الأمثال فيما يخصّ القرن الخامس .

هـذا ابن جناح النحوي المؤسس الحقيقي للنحو العبري : كتابه الرئيسي « التنقيح » مكتوب بالعربية .

وهذا ابن جبرون الذي يسميه العرب : ابا أيوب سلمان بن يحيى . فكتابه في الفلسفة المعنون بـ « عين الحياة » محرر بالعربية متأثر جلياً بالنظرية الفلسفية لابن مسرة القرطبي المتوفى سنة ٣١٩ = ٩٣١ وصلة فكر ابن جبرون بالعرب واضحة كل الوضوح حتى في أقصر مؤلفاته التي حرّرها كلها بالعربية ، منها كتاب في النحو يتأسف فيه — كما سبقه في ذلك الفارو القرطبيّ — على إهمال إخوانه للغة العبرية ويعبر عن اليهود السرقسطيين بـ « الأمة العمياء » ويؤنب بعضهم لأنهم يتكلمون بالإدومي (iduméen) بالعجمية الأندلسية ، وبعضهم لانهم يستعملون الكيدار (kédar) اي اللغة العربية ومنها منتخباته التي جمع فيهـا ما اقتبس من الفلاسفة اليونانيين والحكماء العربيين من أمثال وحكم ، وكلها مكتوبة بالعربية .

وهذا باهية بن باكودا المعاصر لابن جبرون وكتابه « واجبات القلوب » الذي يظهر فيه تأثير المذهب الأخلاقي للغزالي هو أيضاً محرّر بالعربية .

ثم هذا موسى بن عزْري الشاعر الغرناطي الذي عرض في كتابه : « قلادة الجواهر » للحبّ وبنت الحان واللهو على غرار العرب وبالعربية . وكثيراً ما نعثر في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أشعاره على المحسنات العربية مثل التجنيس والمطابقة و كتابة : « المحاورات والمذكرات · عبارة عن رسالة يعالج فيها صناعتي الشعر والنثر ويبسط فيها تاريخ الأدب الشعري اليهودي بالأندلس مع المقارنه بين الشعر الامسرائيلي والشعر العربيّ · وكل ذلك باللغة العربية الفصحى ·

واليكم دليلاً آخر وهو يهودا هالوي النطاميّ الطليطليّ · يكتب بأسلوب عربي أنيق واشعاره حافلة بأبهى الأوصاف الطبيعية · ومؤلفه الرئيسي هو « كتاب الخزَريّ » الذي هو عبارة عن قصة فلسفية بالعربية موضوعها اعتناق ملك الخزر للدين الامسرائيلي في القرن السابع للمسيح · وقد صارت فيما بعد مثالاً حذا حذوه بعض المؤلفين النصرانيين باسبانيا اكبرهم رامون لول (Ramon Lull) ·

وبعد فقد طال سرد حججنا على انتشار اللغة العربية وآدابها بين اليهود الاندلسيين ، وفي الاطالة ملالة ، ولكن نطلب من فضلكم ان تسمحوا لنا بأن نُدليَ بدليل أخير ألا وهو ابن ميمون الذي عاش في القرن السادس · كتب رسالته في « الرّدّة » (Apostasie) بالعربية ، وبالعربية أيضاً كتب كتابه المعنون بـ « التبيين » (Elucidation) ورسالته في « التعزية » (Consolatide) على الامم الامسرائيلية اليمنية ، و كتاب « القوانين » (Lois) ولا سيما « مُرشد الضالين » (Guide des Egarés) الذي هو حقيقة موسوعة فقهية فلسفية للملة اليهودية يحاول فيها ان يوافق بين العقل والإيمان ·

هذا وبجانب هؤلاء اليهود الذين بقوا على دين اجدادهم ، مع ميلهم الى الثقافة العربية ، يحسن بنا ان نذكر اليهود الذين اسلموا اسلاماً خالصاً واشتهروا بالأدب العربيّ · وهم الذين ينعتون بصفة الإسلامي غالباً وفي بعض الأحيان : باليهودي او الامسرائيلي · واسم ابن سهل الامسرائيلي الشاعر في الموشحات مشهور في القرن السابع ·

واما في القرن الخامس الذي نحن بصدده فنجد خمسة أدباء يجدر بنا ذكرهم وهو ابن سدراي وابن القروي وسموئيل بن نغريلة ويوسف بن نغريلة وابن حسداي ·

ابن سداري المكنى بابي بكر هو وزير ملك السهلة : عبد الملك بن رزين · وقال في شأنه صاحب « نفح الطيب » (ط · لندن ج ٣ ص ٣٧٧) :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

«كان للملك المذكور وزير من أعاجيب الدهر وهو الكاتب ابو بكر بن سدراي وذكره الحجازي في المسهب وقال: إن له شعراً أرق من نسيم السحر، واندى من الطلّ على الزهر» .

وأما ابن القرويّ فهو حسبما وردفي «الذخيرة» لابن بسام (مخطوط ج ٣ و ١٧٣ ظ) الملك من ملوك الطوائف لم يذكر اسمه . وله كاتب مسلم : ابو الحسين بن الجدّ، وبين الوزير وكاتبه نوادر تدلّ على تضلعهما من اللغة العربية .

والمثل الأمثل لإجادة الاسرائيليين في الآداب العربية هو سموئيل بن نغريلة . وقد أجمع الأدباء الأندلسيون على ان ابي نغريلة هذا وزير ملوك غرناطة قد ألمّ بدقائق اللغة العربية وخصائصها واعترفوا به كاتباً عبقرياً . وعلاوة على ذلك كان سخي النفس جزيل العطايا للشعراء والأدباء، ويحمد فيه فطنته وذكاؤه .

وأما ابنه يوسف بن نغريله فكان مجيداً، كأبيه في النظم والنثر العربيين ولكن لا يعرف كأبيه يجلب القلوب اليه بإحسانه ودعته فأثار فتنة قضت عليه .

وبقي لنا ذكر ابن حسداي وزير ملكي مرقسطة المقتدر والمستعين . وله الحظوى الكبرى عندهما وكان لا يغادرهما أبداً لحاجتهما اليه ويرافقهما في سفرهما ويشاركهما التنزهات بالزوارق على نهر الإبره (Ebre) . فهو النديم الأديب الذي يلهي صاحبيه بأشعار مرتجلة ونكت ظريفة . ومن اكبر الدليل على تقدير المستعين له ما حكاه الفتح بن خاقان في قلائد العقيان انه لما احتفل بزفاف بنته الى الوزير ابي بكر بن عبد العزيز عهد الى ابن حسداي بتحرير الرسائل لدعوة الاعيان والاكابر الى العرس .

مما أسلفنا نستدلّ جليّاً ان اللغة العربية هي المثل الأعلى للغة الأدبية في القرن الخامس . فان جميع الشعوب والعناصر في الأندلس تستعملها برغبة أكيدة لا منازع فيها . فبديهيّ ان المسلمين يتكلمون بها ويكتبون بها ويعبرون دأباً عما يخالج انفسهم نظماً ونثراً . فاللغة من مقومات الناس في كل زمان ومكان . وأما ما يخص بالأندلسيين غير المسلمين من نصارى ويهود فغريب بادئ بدء استعمالهم اللغة العربية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فان للنصارى المزاراب اللغة اللاطينية ولليهود اللغة العبرية وهاتان اللغتان أدبيتان كاللغة العربية . ولا يمكننا الا ان نتساءل اي سبب يحملهم الى دراسة اللغة العربية وتفضيلها على غيرها .

هل هي الفائدة او المصلحة الشخصية ؟ فلا شك ان المصلحة الشخصية من أهم الأسباب النفسية التي تدعو الإنسان الى الحركة والعمل . وان الوظائف المهمة والمناصب العالية لا تعهد ، على ما يظهر في القرن الخامس ، الا الى من يضطلعون بالعربية ويجيدون تحرير رسالة بالنثر الفني ويرتجلون الأبيات المفعمة بالإشارات التاريخية والتلميحات الأدبية ويؤلفون بديهة من غير روية تهنئة او دعوة وينظمون ، اذا سنحت الفرصة ، مدحاً للتقريظ أو رثاءً للتعزية . وان تعطى المناصب العليا المسلمين فالخطط الثانوية تُوزَّع على كل السكان مهما كان دينهم ، لا يُراعى في ذلك إلاّ الأهلية والكفاءة . وهذا أوضح دليل على سيرة العرب الفاتحين مع الأهالي المفتوحين قوامها التسامح العام .

وهنا يسأل سائل : لماذا النصارى واليهود لا يصرون على استعمال لغتهم الأدبية الخاصة ودراستها ولهم الحرّية في إقامة شعائر دينهم بلغتهم — في حدود أمر عمر بن الخطاب المختص بالذميين — ولهم الاذن من قِبل الخليفة أو الملك في انعقاد « كونسيلات » أي مؤتمرات دينية يناظرون فيها باللغة اللاطينية أو العبرية مسائل تتعلق بشؤنهم الشخصية ؟ إذاً المصلحة ليست وحدها سبب اهتمامهم باللغة العربية واستعمالهم إياها في تناول مواضيع نظرية معنوية كانت أو فلسفية .

يجب علينا أن نلتمس سبباً آخر لا يمتُّ الى المصلحة بصلة وهو ان اللغة العربية في القرن الخامس تظهر للشعوب جمعاء القاطنة بالأندلس اللغة الوحيدة التي تشفي غلة الشاعر أو الفيلسوف — بثروتها ومرونتها ، نعم اللغة الوحيدة التي تقدر ، باتساع نطاق مفرداتها وتفنن تراكيبها النحوية ، وجزالة ألفاظها من أصيلة ودخيلة ، على ان تعبر عن أدق العواطف وأعلى الأفكار وذلك لأن لغة العرب ، لغة قريش والقبائل العريقة في العروبة ، قد بلغت ، في القرن الخامس ، الى كمال لا تتجاوزه فيما بعد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان الشعر في القرون الثلاثة الأُوَل قد غير ومرَّن تراث العصر الجاهلي وأفسح مجال الشعر الذي ازدهر في صدر الاسلام . فتحضر بعد ان كان بدوياً ، وبتأثير المدنية الحضرية والأخلاق المتمدنة والحياة النعيمة التي ذاعت في البلاطات الملكية بدمشق ولا سيما ببغداد ، قد تر شيئاً فشيئاً ما بقي فيه من خشونة وواقعية . وانسجم ايقاعه وتناسق تقطيعه . وعلاوة على ذلك تفنن في أغراضه كأنه لا يقبل ما قد فرض عليه من بيان ضيق وبديع حرج . وزعم على ان يصور عواطف وأحوالاً نفسية ونزعات كادت تجهل في الجاهلية وفي صدر الإسلام . وبكلمة واحدة صار إنسانياً أكثر وأدق .

وقبل كلّ شيء فانه لفت أنظاره الى الطبيعة فمهر في رسمها وتصويرها لا يكتفي بجمع خطوط وأدهان مادية محضة تكوّن شبه لوحة يابسة غير كاملة لا تظهر فيها حياة ولا يبرز فيها الا ألوان منفردة لا تخلو على كل حال من رشاقة ما . وانه يحاول ان يرسم إطاراً حيث تأتلف الأدهان بعضها ببعض وتقوى بعضها إشارة الى المهمّ الممتاز وتعين كل العناصر على تكوين لوحة تخفق الحياة فيها ويجد الانسان فيها محله الطبيعي

وتحول الشعر في المبنى والمعنى ناتج من عمل الشعراء الذين يشرفون على التاريخ الأدبي كأنهم نجوم زُهر تلمع نوراً وتسطع شرراً وهم :

بشارُ بن بُرد العبقريّ الاريّ العقلية ، وأبو نواس ، فرلين (Verlaine) صدر العصر العباسيّ ، ومسلم بن الوليد ، الملقب بصريع الغواني ، وابو العتاهية ، شاعر الزهد التشاؤمي ، وابو تمام والبحتري وابن الرومي ، هؤلئك الثلاثة الذين جدَّدوا الأغراض القديمة ، وابن المعتز ، الرسّام الأنيق الدقيق للطبيعة ، وابو الطيب المتنبي ، أمير الشعراء ، فيكتور هوغو القرن الرابع ، وابن هانئ الأندلسي العبقري المتوفى في عنفوان قدرته ، ولا سيما « ابو العلاء المعرّي » الشاعر البصير الحكيم الأكبر المعاصر للقرن الذي نحن بصدده .

هذا شأن الشعر في القرن الخامس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما النثر فهو على وجهٍ عام تأسيس القرون الثلاثة الأُول فوجوده في الجاهلية مشكوك فيه . ويحاول ان يتكوّن في صدر الإسلام لأنه لغة أُخطب أكثر منه لغة الرسائل والكتب . ثم يشعر بقدرته في زمان عبد الحميد الكاتب وابن المقفع اللذين يستاهلان ان يُعتبرا مؤسسيه الحقيقيين . ثم يجيء ابن قُتيبة ويُمرّنه مع انه يُبقي له صبغته العربية الخالصة . وأما الجاحظ فيفسح المجال للنثر في ميادين شتى ويعالج به مواضيع متفننة . وفي زمان المأمون ومن تبعه من الخلفاء العباسيين يتصدّ النثر في الترجمات من اليونانية ماءً ينميه وينعشه ليعده على إثمار خصب ويبلغه الى مقداره المنطقيّ الكلاميّ ويصيره آلة كاملة لتعبير أدق الأفكار بواسطة المتكلمين والفلاسفة وأُمراء البيان .

وفي القرن الخامس نفسه يعرف الشعراء والكتاب الأندلسيون كاتبين معتبرين في الشرق ألا وهما الغزاليّ والحريريّ . فالغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هو حجة الإسلام صاحب المؤلفات العريقة في المعاني الفلسفية الدقيقة . والحريري المتوفى سنة ٥١٥ (خمس عشرة وخمسمائة) هو صاحب المقامات ذات الأُسلوب الفائق الخلاّب .

إذن ماذا يعوز الشعوب الأندلسية ولديها أكمل آلة للتعبير عن أفكارها الجدّية أو الهزلية ؟ فقد برهنا انها تكثر من استعمالها على احسن حال . فاللغة العربية تظهر لغة شبه عالمية تبشر فيما يخص الأندلس بازدهار الأدب والفلسفة والتاريخ في القرن السادس مع ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وفي القرن الثامن مع لسان الدين ابن الخطيب وابن خلدون .

هنري بيريس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net